الفصل التاسع

الدون

انتهت دورة الاستقصاءات الميدانية ولكن الطريق في متاهة الأفكار والآراء غرق في مأزق وصار من الواضح أنه لا يجوز اعتبار الخزر من الهمج السهبيين ولا شعب رفيع الحضارة شكل حضارة على النمط البيزنطي أو الخلافي (نسبة إلى الخلافة - المترجم).

وحسب طبيعة الاقتصاد أي حسب الحياة التي عاشها الخزر وقفوا عند المستوى عينه الذي كانت فيه القبائل السلافية: البولوفية والشمالية المعاصرة لهم، فهم عانوا أيضاً من غارات الرحل وكذلك خضعوا بقوة السلاح للقادة المتربعين في إيتيل وكييف.

والاختلاف كان في العواصم بالذات: فقد استطاعت الأوساط الحاكمة العسكرية - الديمقراطية الكييفية الاندماج مع شعبها المكون من القبائل الخاضعة بالسلاح أما الحكومة الإيتيلية فقد عقدت رهاناً مع الدوائر التجارية الإيرانية والهوة بين الملك والشعب لم تملأ وإنما ازدادت عمقاً وهذا الذي حَتَّم انتصار الروس الذي حدث قبل ألف عام بالضبط.

ولكن ما الذي حلّ بالخزر؟ إن الشعب الكبير لا يمكن أن يفنى دون أثر ويجب البحث مرة أخرى وفي هذه المرة بالكتب والمدونات التاريخية وأخبار الحوادث التي قرئت أكثر من مرة، ولكنها ما أعطت جواباً عن السؤال. وهنا عقدة المسألة. إن فهمنا للمقروء يتوقف في الأغلب علينا بالذات: على مقدار اطلاعنا العام والخاص وعلى نظام تداعي الأفكار وعلى الأهداف المحددة عند توفر القراءة وحتى على الوضع الصحي. وشرعت ثانية بقراءة الكتب لأني الآن عرفت ما أريد العثور عليه.

وأعرت انتباهي لذلك القسم الإثنوغرافي الذي ولد في العلم السوفييتي ويحمل اسماً خاصاً - منشأ الشعوب. وغاية منشأ الشعوب تتلخص بالإجابة عن السؤال: كيف نشأ وكيف فني شعب وأين ضاع أحفاده؟ فبالنسبة للقسمين المكونين للشعب الخزري كان ذلك بسيطاً فاليهود الذين هربوا من سيوف متطوعي سفياتوسلاف هجروا البلاد وتصادقوا في البداية مع خوارزم ثم مع خانات القبيلة الذهبية وذابو في أوساط تتار الفولغا، والوثنيون إما أسلموا أو صاروا مسيحيين وأخيراً أين ضاع المسيحيون الذين كانوا في وطن الشعب الخزري في وادي التيريك يشكلون أكثر المجموع؟ لقد ورد ذكرهم في المدونات التاريخية مراراً ففي عام ١٠١٦م شاركوا في قمع انتفاضة الزعيم البيزنطي جيورجي تسولو وفي عام ١٠٢٣م ساعدوا أمير تموتاركان مستسلاف على الانتصار في الموقعة عند لتسفينيا وفي عام ١٠٧٩م قبضوا في تموتاركان على أمير - ايزغوي أوليغ سفياتو سلافيتش وسلموه لليونانيين.

ويظهر من مجمله أن الخزر كانوا كثيرين وأن اختلاطهم بالروس كان حيوياً ووثيقاً وبالتالي علينا أن نبحث عن أخلافهم حتى في الحالة التي لو غيروا فيها اسمهم كما يحدث كثيراً ليس فقط مع الأفراد وإنما مع شعوب بأكملها. ولكن في البداية سنعود دقيقة إلى مدينة سيمندير المجيدة.

في البداية كانت سيمندير عاصمة خازاريا ولكن هجوم العرب أجبر الخان الخزري في عام ٧٢٣م على نقل مقر إقامته إلى ضفة الفولغا، إلا أن سيمندير لم تفقد أهميتها. ففي القرن العاشر الميلادي كانت كما في الماضي مدينة زراعية تجارية مزدهرة وتختلف عن إيتيل فقط بأن القسم من سكان سيمندير الخزريين دانوا بالدين المسيحي، وبالطبع كان هناك يهود ومسلمون. ولكنهم شكلوا الطبقة الحاكمة أما الشعب فقد تطلع إلى الحضارة البيزنطية مثل البلغار والسلاف جيران الخزر أيضاً الذين هزمهم الخزر أولاً وانتشروا حتى إيتيل وهؤلاء الأخيرون كانوا في حالة ارتقاء في القرون ٩-١٠م وبدءاً من القرن الثامن انتشرت قبائل السلاف الشماليين إلى الشرق من الدنيبر حتى الدون ذاته. وأصبحت اللغة السلافية في القرون ٩-١١م الرابط لجميع السهوب الواقعة عند البحر الأسود والبكري - (جغرافي القرن الحادي عشر العربي)

يؤكد أن غالبية القبائل الشمالية تتكلم السلافية لأنها اختلطت بالسلافيين ومن تعدادهم يسمي: البتشينيغ والروس والخزر.

وبالفعل لأي سبب تخاصم الفلاحون وصيادو الوحوش ذات الفراء الثمين السلافيون والكرامون وصيادو الأسماك الخزريون فيما بينهم. وفي عام ٩٦٥م نشبت حرب ضروس بين حكومة خازاريا والمحاربين من حرس الأمير الكييفي سفياتوسلاف ولم تنقذ سيوف ورماح المرتزقة إيتيل من سيوف الروس الطويلة وصارت سيمندير من تعداد المدن التي استولى عليها واستبقاها سفياتوسلاف ولكن مدينة من الخيام لا تخشى الحريق.

واستمر الخزر بعد الحرب بالعيش كالسابق وهذا ما يمكن أن يقدمه لنا الطريق (الأسلوب) المباشر - دراسة المصادر. وآثار الشعب الخزري مفقودة وللعثور عليها ثانية يجب سلوك الطريق غير المباشر للاستدلال التاريخي. وهذا يعني الانتقال من العام (معرفة العهود التاريخية) إلى الخاص (مصير الخزر).

في القرون الوسطى فرّق الإيمان الديني لا الانتماء القومي بين الناس. وطالما كانوا في كييف يقدمون الفتيان قرابين بيرونية[١] تحاشى المسيحيون الخزر الروس والسلاف، ولكن في عام ٩٨٨م غطس الصنم الرهيب إلى الأسفل في قاع الدنيير وقامت بدلاً منه كنيسة العُشْر[٢] وبذلك زالت آخر الأسباب للخصام بين الخزر والروس المجاورين بعضهم بعضاً في وادي الدون حيث بني مكان ساركيل مدينة بيليافيجا وفي مصب الكوبان قامت تموتاراكان الشامخة. وفي القانون العام الأرثوذكسي يمنع الزواج من الهراطقة وبعد تعميد الروس استطاع الروس والخزر تكوين أسر من دون قيود وحتى كان أعداؤهم مشتركين - الرحل السهبيون المجريون أولاً ثم البتشينيغ وفي النهاية البولوفيون الذين أصبحوا منذ العام ١٠٦٨م المالك المطلق التصرف بالسهب العظيم من الألطاي إلى الكاربات إلا أنه ظهر أنهم ليس في مقدورهم التغلب على الخزر.

١- قرابين كانت تقدم لصنم إله الرعد والبرق بيرون وهو بنفس قيمة الإله زيوس.

٢- كنيسة العُشر: معبد أو هيكل حجري أمر ببنائه الأمير فلاديمير في الأعوام ٩٨٩-٩٩٦م وسُمي بكنيسة العُشر، واعتُبِر أنهم سموها بهذا الاسم لأن الأمير فلاديمير قد خصص لنفقة الكنيسة والمطرانية عُشر مدخولات أملاكه الخاصة.

لقد سبق ووصفنا دلتا الفولغا على أنها قلعة طبيعية أما الغابة على طول التيريك كملجأ جيد وبهذا الصدد يتمتع وادي الدون الأوسط بخصائص مماثلة لها، وحتى تتفوق عليها فالمدرجات الغضارية والطفالية الرملية الواقعة إلى أعلى من المناطق التي تغمرها مياه الفيضان مغطاة هنا بغابات وارفة من البتولا والحور والحور الرومي والبلوط وهنا الكثير من أراضي المروج والمراعي والبحيرات غير العميقة. وفي الغابات الواقعة خلف التلال الرملية كان من الممكن أيضاً الاختفاء حماية من العدو القادم من السهوب الغضارية الرملية الجافة التي تحيط بالوديان النهرية ومن هنا أيضاً كان من الممكن إنزال الضربات المعاكسة بالعدو، ولكي يجبر السكان المحليون على الخضوع كان يجب زج قوات متفوقة بوقت واحد وعلى مساحة واسعة. والبولوفيّون لم يكن في حوزتهم مثل هذه القوات.

وبالرغم من ذلك كانت الحرب في عام ١١١٧م عنيفة وهجر الروس سكان بيليافيجا القلعة في المكان ذاته حيث تهدر الآن أمواج بحر تسيميليانسكي وهنا سَهَّلتْ الظروف الطبيعية انتصار البولوفيين لأن بيليافيجا القرية الصغيرة واقعة في مرج فسيح تغمر القسم الأكبر منه مياه فيضان الدون وهنا استطاع الفرسان البولوفيين العمل بلا إثنوسلة، ولكن في غابات وادي الدون سلم وبقي السكان المحليون الذين أخذوا في القرن ١٢م لقب برودنيون[١].

وتكلم البرودنيون اللغة الروسية ودانوا بالمسيحية ولكن المدونات التاريخية المعاصرة لهم لم تخلط بينهم وبين الروس[٢] واعتبرتهم شعبين مختلفين ومع الأسف لا توجد معلومات مباشرة في المصادر عن منشأ البرودنيكيين.

ولكن لنبحث في المعطيات غير المباشرة، ففي القرن ١٢ بنيت على خرائب بيليافيجا قرية من الآجر السامانى مثل الذي عند التيريك. وعنب نهر الدون ينحدر أصله من عنب نهر التيريك والخراف استبدلت تدريجياً بالإبقار في الدون وأغنام الأضاحي (يعني الأكثر انتشاراً) صارت حيوانات للذبح عند الخزر.

١- أول ذكر لهم في المدونات التاريخية الأيباتوفية كان نحو عام ١١٤٧م.

٢- في عام ١٢٢٧م أرسل البابا جيورجي التاسع مبشرين للتعليم في «الكومان وأرض البرودنيك المجاورة» وفي كتاب الملك الهنغاري ذكر تعداد أعداء هنغاريا في عام ١٢٥٤م «الروثان والكومان والبرودنيك والبلغار».

ولنبحث أيضاً في التغيرات المناخية في الوقت الذي يهمنا وهو القرن العاشر - عهد التجفاف المؤقت للسهوب، يعني أن وادي التيريك عانى من الجفاف أكثر من الحرب أما وادي الدون فلم يعان إطلاقاً لأن الدون ينبع من منطقة الغابات حيث درجة الترطب كانت مرتفعة. وليس من الواضح كيف استطاع الخزر أن ينتقلوا إلى وادي الدون من وادي التيريك مع أن قسماً منهم بقي في المكان مستخدماً لاقتصاده الحضري سفوح قمم ذيل سلسلة جبال القفقاس[1]، ولكن ألا يمكن أن يكون قد حدث اندماج الخزر مع البولوفيين الذين يحيطون بقراهم من جميع الجهات؟ لا وللأسباب التالية: أولاً: إن الاقتصاد الرحلي عند البولوفيين كان غير مقبول عند الخزريين ولكي يتم التحول إلى الحياة الرحلية كان يجب الاقتلاع الجذري لكل شيء فكري ونفسي حضري ومقابل ذلك سيحصل الخزر فقط على وضع تابع من الدرجة الثانية مهين لهذا الشعب الأبي الذي كان يمكنه الدفاع عن نفسه ما دامت السهام في جعبته.

ثانياً: إن اندماج الخزر مع البولوفيين كانت تعيقه عادات أولئك وهؤلاء، فالخزريون كانوا مسيحيين وإعطاء البنات للهراطقة يمنعه القانون، والبولوفيين عاشوا نظاماً قبلياً. وقبول الغريب في القبيلة يعني جعله مالكاً مشاركاً في جميع أراضي المراعي وشريكاً في اقتسام الغنائم ولمن يمكن أن يحلو هذا؟

ومقابل ذلك اختلاط الخزر بالروس لم يعقه أي شيء.

والآن ألا يحق لنا أن نستخلص الاستنتاج الذي نشأ بذاته؟ البرودنيكيون هم شعب - خزري - روسي المنشأ وورثة الخزر القدماء وطالما تحارب أمراء كييف مع البولوفيين كان البرودنيك حلفاءهم، ولما اصطدم الكييفيون مع البولوفيين وجد البرودنيك حلفاء لهم بشخص المغول وساعدوا سوبوتاي - باغاتور على الانتصار عند كالكي في عام ١٢٢٣م وقد قدَّرَ خانات القبيلة الذهبية المساعدة التي قدمت لهم وتركوا البرودنيك يعيشون باطمئنان في وديان الدون والتيريك، وبدءاً من القرن ١٦م سمي أحفاد البرودنيك بالكلمة التيوركية - قوزاق.

ومن الشائع الاعتقاد أن القوزاق هم فلاحون روس هربوا إلى الدون خوفاً من الأوبرتشيين[2] وبكل تأكيد تشكل القسم الأكبر من القوزاق بهذه الطريقة بالذات

١- القصة حول محادثات إيفان الرهيب مع قوزاق الأعراف كتبها ل. ن. تولستوي.

٢- الأوبرتشين: اسم القوات الخاصة (الحرس الشخصي) لايفان الرابع (الرهيب) وكان من إحدى مهماتها الصراع مع الأمراء البويار المعارضين - المترجم.

البويار: هم الطبقة العليا المكونة من كبار الملاّك الإقطاعيين في روسيا ما قبل القيصر بطرس الأكبر - المترجم.

ولكن الهاربين إلى الدون لم يجدوا أنفسهم في صحراء وبسبب ذلك ولد المثل المشهور «من مراح الدون ما في سراح» وبالفعل يمكن الاعتقاد أن روبنسون كروزو (أو أصله) عاش في جزيرة غير مأهولة وحتى استطاع التخلص من شرذمة الهنود ولو بمساعدة السلاح الناري على أي حال. ولكن كيف استطاع الفلاحون الروس الذين وقعوا في ظروف طبيعية غير مألوفة لهم البقاء عندما ساد على جميع السهوب التي تتقاسم المياه عند البحر الأسود النوغائيون الذين كسبوا رزقهم من اختطاف الناس وبيعهم عبيداً؟ ولا يمكن الإجابة عن السؤال لماذا سمحت الحكومة الموسكوفية المحتاجة جداً لدافعي الأتاوات بجلاء رعاياها إلى خارج الحدود إذا كانت مفرزة فرسان واحدة تستطيع احتجاز قدر ما تريد من الهاربين العزل من السلاح؟ وأخيراً لكي يتحول المزارع الفلاح إلى الحرب والصيد يحتاج إلى وقت وتدريب. وكما يبدو حدث هذا في الدون حيث استطاع الغرباء التعود بهدوء على الظروف الجديدة ونمط الحياة الجديد.

وهذا يعني أنه من القرن ٨م إلى القرن ١٦م عاش أحفاد البرودنيكيين في حرب مع السهب وعوز للإمداد ولذلك تقبلوا في وسطهم الذين من دينهم نفسه مؤمنين لهم في بادئ الأمر الملجأ والتدريب ثم الأمان من مورزات النوغاي والبويار الروس.

وقد تيسر لي العثور على إحدى قرى ذلك الزمان في رمال تسيمليانسكي في عام ١٩٦٥ وعن ذلك يجب التحدث مفصلاً.

بعد أن توقفت البعثة الخزرية استدعيت للعمل مع البروفيسور الكسندر غافريللوفتش غائيل باحث الرمال المشهور مثله مثل أ. أ اليكسين الذي اهتم بإمكانية تأريخ مقابر طبقة التربة الدبالية وكانت اللقى العديدة التي وجدناها معاً وعلى حدة أسباباً لنتائج مهمة جداً. ولكن واحدة من اللقى التي تمت بطريقة غير مباشرة إلى موضوعنا هناك عند شاطئ بحر تسيمليانسكي الذي غمر المدرج الأول الواقع فوق الأرض التي تغمرها مياه فيضان الدون يقع شريط الرمال الذي يفصل ثلث المدرج الواقع فوق الأرض التي تغمرها مياه فيضان عن الرمال المحيطة ويعتبر بقية الأديم القديم للدون (قبل امتلاء بحر تسيمليانسكي).

ومن الصعب أن تتصور بنفسك مكاناً غزير الخيرات أكثر من هذا، فإن تصوري العام عن الرمال كصحراء قاحلة تحطم مرة وإلى الأبد فحتى بالسنوات الجافة توجد المياه الجوفية على عمق نحو المتر وتتغلغل جذور النباتات دون صعوبة إلى الرطوبة الباعثة على الحياة، فهنا لا تنمو البتولا والحور والصفصاف فقط بل البلوط الرائع الرؤوف بالإنسان والقسم الأكبر من الرمل متصل بالأعشاب السهبية وهذا يحزن فقط علماء الآثار لأن قِطع الفخار باعتبارها أشياء ثقيلة تتغلغل عبر الرمال ولم تعد ترى بالقرب من طرق الاستطلاع ولكن الرياح تهب للمساعدة فتسفها مرة هنا ومرة أخرى هناك من قطاعات المدرجات وبخاصة في تلك الأماكن التي تعرضت فيها التربة لتدخل الإنسان، وفي أحد الأماكن المعراه[1] وجدنا رواسب من كسرات من الفخار في مجال غير كبير جداً ١٧×١٤م وشظية من حجر مسامي يظهر أنها قطعة من حجرة موقد وكانت تلك بقايا قرية ويحتمل ببساطة أن تكون بيتاً واحداً.

وقطعاً لا تعود إلى الماضي البعيد والقسم الأكبر من الأوعية كان مجبولاً بالأيدي من دون الاستعانة بدولاب الخزاف وكان الشيء شديداً بالرغم من أن الأوعية لم تكن كلها مشوية من طرف لآخر وفي بعضها كانت الكسرات من الغضار الرمادي الغامق ولوحظ على بعض منها آثار الدهان الأحمر والبعض الآخر كان مزخرفاً بتجاعيد متوازية. بالاختصار حمل الفخار آثار تأثير الثقافة الغُزّية والتترية مما يحدد زمن الحياة في هذا البيت من القرن ١٠-١٥م ودلت اللقية نصف المغزولة الملفوفة على مغزل على أنها (أي القرية - المترجم) لم تكن معسكراً حربياً حيث لا تغزل النساء الصوف أبداً وكانت هذه قرية حضرية للبرودنيكيين واقعة ليس بعيداً عن المنخفض حيث تنمو البتولا والحور والمياه توجد على عمق نصف متر من سطح الأرض ولكي لا يرتبك أحد ما بأن الأوعية كانت يدوية ومن الفخار الطري فإنه في ظروف الحروب الدائمة كان الخزافون أقل مما يكفي لصناعة الأوعية ولذلك تدبر البرودنيكيون الأمر كيفما استطاعوا. وهذه اللقية اكتشفت بمساعدة حارس الغابة المحلي أوسيب يفريموفتش تيريتييف الذي أقدم له خالص الشكر.

ولكن ألا تتناقض آراؤنا بأن الدولة العظمى - القبيلة الذهبية - قد عانت على أرضها من الجسم المختلف الجنس مثل البرودنيك - القوزاق؟ كلا! فالبرودنيك كانوا أعداء لا للخانات التترين وإنما للخانات النوغائيين الذين قاموا

١- على بعد ٢كم غربي عزبة سيمونوف - أوتكين.

دوماً ضد ورثة باتاي الضعفاء والتسمية «نوغائيون» تعني أنصار الظلام. وهؤلاء النوغاي الذين قاموا في نهاية القرن ١٣م للصراع مع المغول القادمين من آسيا كانت قواتهم مكونة في القسم الأكبر منها من أحفاد البولوفيين والقبائل الرحلية الأخرى الخاضعة للمغول والحاقدة عليهم وانهزم النوغاي بمساعدة القوات الروسية التي جاءت لمساعدة خان التوختي وقتل الروس في الحرب، ونحن لا نملك براهين مباشرة على أدوار البرودنيك في الحروب الداخلية التترية ولكن منطق الأحداث يدل على أن خانات القبيلة الذهبية كانوا حلفاءهم الطبيعيين أما النوغاي - فأعداؤهم، واستمر هذا التصادم حتى بعد سقوط القبيلة الذهبية لما سادت في السهوب الفوضى التي ظهرت على يد البرودنيك - القوزاق الذين نالوا الاستقلال الكامل. فمثلاً في عام ١٥٣٨م وجواباً لشكوى المورزات النوغاي كتبوا من موسكو «في الميدان يجول قوزاق كثيرون: قازانيون - وآزوفيون وكريمنيون (نسبة إلى منطقة بحر آزوف وشبه جزيرة الكريم (القرم - المترجم) والقوزاق الأشقياء الآخرون وقوزانا الأوكرانيين اختلطوا معهم يجولون وهؤلاء الناس يسرقونكم كما يسرقوننا».

وفيما بعد استطاعت الحكومة الموسكوفية إيجاد لغة مشتركة مع قوزاق الدون وجعلت منهم حاجزاً ضد الغزوات التترية على روسيا. ونشير أن القوزاق التقوا عند التيريك قادة إيفان الرهيب بعد الاستيلاء على خاقانية استراخان وعقدوا معهم حلفاً ضد الرحل والجبليين القفقاسيين.

إذن ماذا نرى؟ تتغير الشعوب ولكن العلاقات بينهما تبقى ثابتة، وهذا الثابت يعبر عنه بالمعادلة الجبرية حيث البَسط هو سكان الوديان النهرية، والمقام سكان السهوب.

$$\frac{\text{الآن القرن ٤م}}{\text{الهون}} = \frac{\text{الخزر}}{\text{البلغار والهنغار}} = \frac{\text{البرودنيك}}{\text{البولوفيون}} = \frac{\textit{قوزاق الدون والأعراف}}{\textit{النوغاي والكوميك}}$$

وهكذا استطعنا تحديد مكان الخزر في تاريخ شعوب وطننا (أي الاتحاد السوفييتي السابق - المترجم).